

المقالة السابعة والعشرون^١

في التوبة

الجالسون في طاعة أب روحاني يخطر لهم العدو أفكاراً قائلًا : أنصرف من هنا وأجلس مع ذاتك فتفعل أكثر . فإن تنازل الأخ لمثل هذه الأفكار يفارق الأخوة ، وإن أبصر العدو أن فكر الأخ مستفيق قليلاً يخطر له قائلًا : أدخل إلي البرية الداخلية . ثم إذا جلس الأخ مدة ما في البرية يخطر له فكر الضجر وطول المدة وضيقه الحوائج وقتلتها وضعف الشيخوخة وتعب البرية فإن قدر العدو أن يزعم الأخ يسحب منها ويأتي به إلي قرب ضيعة أو مدينة وحينئذ ينشئ له أفكار الزنا فيمتنع الأخ أن يدخل إلي المدينة أو يدنوا من الضياع فإذا أبصر العدو قصد الأخ يخيل بذهنه الحركات ويحتال عليه فمن ذلك أنه يغري امرأة أن تأتيه وهو جالس في قلايته تفرع بابه بحجة أنها تائهة أو كأنها جاءت تستعطي صدقة أو بحجة أنها تطلب إنساناً تعرفه ، فإذا فتح الأخ بابه وأبصر المرأة واقفة لدي قلايته تقول له المرأة : يا سيدي المعلم أين يسكن فلان ؟ وإذ قد مال النهار أعمل محبة واقبلني هذه الليلة لأنني ضالة عن الطريق وأخشى أن تأكلني الوحوش ، وربما تحضر المرأة معها امرأة مخادعة أخرى ولا يبعد أن تحملها مأكولات وحوائج ترومان بها أن تخدع الأخ . فحينئذ يقاتل هذا من فكرين ! فيخاف أن يسقط من الوصية كمن لا تحزن له ، أو يصنع الخير فيقتنص به ولنلأ نسهب المقال نقول إذا غلب الأخ من الشهوة ورام بعد إكمال الإثم أن يبعدها ويصرفها تجاوبه قائلة : لماذا أدللتني ؟ اتصرفني من عندك . إلي أين أذهب ؟ كيف أظهر لوجه والدي ؟ هل يمكن من الآن أن ينكتم الأمر ؟ أعرف حقاً أنني لا أبتعد منك بل أجلس معك في قلايتك لتعولني من حيث ما شئت . فحينئذ يبتدئ الأخ ينتحب علي ذاته نادماً علي أنه فتح لها باب قلايته . فإذا قد عرفت ذلك أيها الأخ صُنْ نفسك فإنك إن وقعت في وهقها لا تستطيع أن تنجو منها إلا بتعب لأنه قيل : أنها بملت شفيتها صرعت . فإذا قد تقدمت وعرفت ما هي أواخر الخطيئة وما تسبب للذين يستعملونها فيما بعد ، فأهرب من لذة الألم فإن أثمارها أثمار الخزي ، فقبل اللذة شهوة وبعد اللذة حزن ، كرر الاقتكار في أن اللذة يعقبها الحزن وأهرب من الخطيئة . أتخذ في عقلك الخزي من الناس بل الأولى خاف الله ، أطررد الشيطان المرید أن يخدعك ويسرق أتعابك لتبقى غير حزين لأن العارف القلوب قد عرف أنك ليس من أجل خبت أو مقت للناس تدفع المرأة بل لنلأ يصنع بك الخير الشر ، فإن قال أحد أن ضيافة الغرباء حسنة فأنا أطابقه لكن سبيل الرجل المحب للضيافة أن يضاهي الذي يصفي الفضة في البودقة فالنقي يأخذه لنفسه ويعرض عن النفاية ، الأمر الذي معناه أحفظ الوصية وأهرب من الخطيئة كما تهرب من فم الحية ، لأن الذي قال : كنت غريباً فأويتموني . قال : لا تزني . تيقظ في حدائك فإن توانيت فتوجد متعبداً للآلام وخادمها من شبيبتهك إلي شيخوختك لأن من غرق في اللجة وإن تيقظ وجاهد لكن نهضات الأمواج تقوي عليه ، فأما من يغرق في الميناء فذلك مصفر من الاعتذار ، بونيته أهلك سفينة سيده ، أنت أيها الأخ في الميناء حاصل أخطر علي نفسك فلماذا لا يوافقنا أن نتصرف في الضياع إن أحوجتك ضرورة لتمضي إلي قرية فلا تحدث امرأة فإنها كالمغناطيس تجذب نفسك ، فُقْ إذاً فإن السقطة ليست موضوعة بعيداً ، جاهد بتورعك وبخشية الله بإزاء المحبة لأن عدم الاستحياء أم الزنا ، إن أبصرتك مائلاً نحوها تجذبك وتسقطك أشد سقطة ، وإن كنت متورعاً فلا تثق بنفسك بل

^١ كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في بركة الأنبا مقاريوس طبع سنة ١٨٩٢

تبقى لكي لا بحجة الخشوع والتبريك ترخي ذهنك بكلماتها . قال بعض القديسين : إن النساء تبرزن كلمات تحركن بها الألم ، لكن كما قال المخلص : ها أنا أرسلكم كخراف بين ذئاب فصيروا عقلاء كالحيات وودعاء كالحمام . والرسول يوصي قائلاً : لا تصيروا سفهاء بل أظنوا ما هي مشيئة الله ولا تسكروا بالخمير الذي فيه نهم الشهوة . فأعرف إذاً أيها الحبيب مستيقناً إنك إن كنت كالذهب النقي في العالم ولما جئت إلي العبادات وتوانيت ورقدت فلا تتباطأ أن تصير كالرصاص ، وإن كنت جئت إليها محباً للرب حقاً فلا تتباطأ أن تصير كاللؤلؤة لا دنس فيك أو وسخ أو شيء مما يماثل هذه ، هذا أوثر أن أعرفك إياه أن من يستعمل الخطيئة قتاله أكثر من غيره لأن من يطرح حمأة في موضع ما يكثر نتائجه هكذا من لا يمسك نمو الألم ، وأعرف إنك إن تواني في ذاتك فستندم أخيراً فإن الرسول يقول : من لا زوجة له يهتم بأمور الرب كيف يرضي الرب ، ومن قد تزوج يهتم بأمور العالم كيف يرضي امرأته . فأنت أيها العابد لم تختار اهتمام العالم وكيف تزعم أنك ترضي الرب ، قد خصيت ذاتك من أجل ملكوت السموات وإن لم تمسك فستغتم أخيراً علي ضروب شتى كما يُعلم القائل : مثل هؤلاء لهم حزن بالجسد لأن المتزوج قد ترك تقويم الفضيلة وتشاغل بمنزلة وامرأته وتربية أولاده وغير المتزوج يهتم بأمور الرب كيف يرضي الرب فإذا قد خصيت ذاتك من أجل ملكوت السموات فأثبت منذ الآن في هذا الحد لأنه قد كتب " الأصلاح ألا تنذر أولى من أن تنذر ولا تقي " فتكلف أن تمسك فتجد أفكارك نقية وذهنك كميناء صاحي مملوء سكوناً ورجاء الخيرات العتيبة يسمن قوى نفسك كما من شحم ودسم .

أطلب إليك أن لا تفسد بنوع آخر هيكل الله ، ولا تحزن روح الله الساكن فيك ، ولا تغم الملائكة المأمورين أن يحفظوك نهراً وليلاً الذين يطردون الشياطين عنا حين يصرون علينا أسنانهم صريراً لا يرى لنا يتلبونا في يوم الدينونة فنسقط في انقلاب السدوميين لأنه إن كانت الحيطان تكثفنا والسقف يغطينا والباب مغلق علينا والظلمة مشتملة لكن فلنخطر بأذهاننا أن الفاصل الظلمة من النور لا يكتم عنه شيء من أمورنا وليحقق هذا عندك النبي القائل : افقهوا أيها السفهاء في الشعب والمائقون ، اعقلوا وقتاً ما أمن نصب الأذن لا يسمع ، أو الذي جبل الأعين لا يتأمل ، الذي أدب الأمم لا يوبخ المفيد الإنسان علماً ، الرب يعرف أفكار الناس أنها باطلة . رأيت أيها الحبيب أن الله لا يعاين أعمال الناس فقط بل وأفكارهم . إن أخطر لك العدو قائلاً : ستكون لك توبة فلذلك تمتع بما تؤثر . فقل : ما الحاجة أيها المحال أن أنقض بيتاً مبنياً بناءً حسناً وأبني أيضاً . إذ الرسول يقول : أعملوا صلاحكم بخشية ورعدة . فحيث تكون التقوى من البين أنه لا يوجد ولا لذة واحدة عالمية . فثابر أيها الأخ الحبيب علي خلاصك وإذا جلست في السكوت فأجمع أفكارك وقل لذاتك : أيها الإنسان لك مثل مدى هذا الزمان صانعاً شهوات الجسد وأمياله فماذا انتفعت ؟ ماذا ربحت ؟ هل زدت علي قامتك زراعاً واحداً ؟ أصرت سميناً ؟ فما خزنت لذاتك شيئاً آخر سوى طعام الدود ، وإذا استفدت الكنز في السموات وأشبع ذاتك خيرات وصرت هكذا بلا خشية فما الفائدة من خروجك من العالم .

ويلك يا نفسي إنك أفضيت إلي مثل هذه السيرة ها أخوتك المتقوا الله قد تزينوا بالفضائل بالحقيقة وأنا أذهب إلي الظلمة ، بالغدوة أنتدم علي الأفعال التي عملتها وفي الليلة المقبلة أكمل أشرف منها ، وهب لي الرب حياة وعافية وأنا أسخط بهما عمداً الذي خلقتني ، يا نفس لم تتوانين لم تتهاونين ، يا نفس اعرفني ضعفك حتى متى تقاومين من خلقك وتتصبين أوامره ، أيها المحال الخبيث قد جعلتني عاراً للملائكة والناس لأنني صرت مطيعاً مشورتك النفاقية لأنك أخطرت لي قائلاً : أعمل شهوتك مرة واحدة ولا تصنعها أيضاً ولا تعرف خطيئتك . وها هو ذلك الصغير قد صار لي هوة ولا يمكنني أن أناصب بإزاء شهواتك الخبيثة المتلونه ، لأن الماء وجد ثقباً صغيراً فصنع هوة عظيمة واضحة للكل ، لأن عادة الخطايا تقود الواقع إلي أشرف حال لأنك أظلمت ذهني بالأفكار الدنسة وكردستني إلي حب الخطيئة ، لمن أقول ليبيكي علي أنا الشقي لأن العدو أوقفني مجرداً من قبل

ونيتي، فأنظر إلي التوكل علي الله ولا أياس من خلاصي لأنه جزيل التحنن وفائق الصلاح ، وماذا أقول للعدو الطاغى لأنه حل مسكى من أجل مرض معدتي وجعلني غريباً من السهر في الصلوات ، غرس فيّ محبة الفضة بسبب شيخوخة طويلة ، جفف دموعي ، غلظ قلبي ، فصلني من الطاعة التي بالمسيح وجعلني غير مطيع وبطالاً ، وصيرني حسوداً ومغتائباً .

السارية التي في عيني لم يسمح لي أن أبصرها ، وقذاء أخي يقدمه أمام عيني ، يشير عليّ أن أكتف أفكار قلبي وإذا سقط أخي في هفوة يجعلني أهد فيها ، علمني أن أكون متكبراً وعضوباً وسخوطاً ، وجعلني شرهاً وسكيراً ومحباً للذة ، خسارات نفسي جعلها عندي مثل فوائد ، صيرني متذمراً وعاجزاً ومهذاراً ، جعلني ردى العادة ومشارراً ، علمني أن أتنزّه في القراءة والترتيل وأصلي ولا أعرف ما أقول .

يسبيني مراراً كثيرة ولا أعلم ، وعظت من قوم يتقون الرب فكنت أخالف وعظتهم الصالحة وأقبل كالأسنة أقوالهم ، إذا انتفعت أغضب . يكفيك أيها المحال مثل هذا الهلاك ، هلمي يا نفسي منذ الآن إلي ذاتك ، علي من تعتمدين إذ تلبئين مغضبة من خلقك إلي متي تتصرفين في هذه الشرور ، لا تنكري نعمة من يستترك لكي لا يبتعد منك فتدفعين إلي أيدي أعدائك .

يا نفسي اهربي من المحال ومن أعماله فإنه ماقت الناس وقاتل الإنسان منذ القديم ، إن قربت إليه لا يشفق عليك من الهلاك ، أكرهي الخبيث والتصقي بالإله المتعطف علي البشر ، أستحي يا نفسي منذ الآن وأقبل إلي طريق الخلاص ، جرحت فلا تياسي من ذاتك ، لأن المجاهد مراراً كثيرة يخر واقعاً وأخيراً يستوضح مكللاً ، سقطت أنهضي ، تشجعي وقولي الآن بدأت ولا تلبثي في الهفوة لكي لا تدفعي كالجثة طعاماً لطيور السماء والوحوش ، أرعي لملك المجد معترفة بخطاياك فإن له كثرة رافات جزيلة ، فالمريدون أن يدخلوا إلي الملك الأرضي يُمنعون من البوابين وتدفعهم الجنود والخدام ويقدمون هدايا للرؤساء لينالوا مرادهم . فأنت إذا أثرت أن تدخل إلي ملك الكل فلا يسبق إلي وهمك شئ من هذه ، لا تطلبي هدية لأن ليس أحد يأخذها وليس من يمنع لأن الملك يوجد للحين مستعداً ومستقبلاً لأنه غير حقود ومحب للناس وغافر خطايا الراجعين .

فتقدم بلا رياء ولا بقلب ضعيف بل تقدم إليه بضمير نقي لأنه قبل أن تتكلم كلمة صغيرة أو عظيمة عرف الأشياء التي عزمت أن تقولها له ، وقبل أن تفتح فمك تقدم وعرف أفكار قلبك ، فلا تنقسم ولا تكتم الألم فإن ليس الطبيب جافياً بل متوجع راث ليشفي بكلمة ، قال فصار وصدق هذا من الأمور نفسها ، قال للمقعد : لك أقول أنهض وأحمل سريرك وأذهب إلي منزلك . ففي الحال صار الإنسان معافى وحمل سريرة ومضي متخظراً . قال للأبرص : أشاء فتطهر . فللوقت نقي من برصة . أقام العازر من الموت بعد أربعة أيام . ولكي لا نقول المعجزات واحدة فواحدة فنسهب القول ، إن أعمال الله لا تحصى ، إن التي بلت قدميه بدموعها ومسحتهما بشعرها بكلمة حل خطاياها قائلاً : ثقي يا بنت إيمانك خلصك لأنه عين لا تنقص نابغة للناس أشفية فلا تنقسم إذاً لأنه لا يطرحك بل يريد أن تخلص ، وهو الذي قال : إن كنتم أنتم الأشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا صالحة فكم أولى بأبيكم الذي في السموات أن يعطي الخيرات للذين يسألونه ويستسمحونه .

تقدم إذاً إلي أب الرافات معترفاً بخطاياك بعبارات قائلاً : أيها الرب إلهي الممسك الكل قد أخطأت في السماء وقدامك ولست مستحقاً أن أدعى ابنك ، ولا أن أتفرس وأبصر علو السماء من كثرة أثامي ولا أن أسمى اسمك المجيد بشفتي الخاطئين ، لأنني جعلت ذاتي غير مستحق للسماء ولا للأرض لأنني أسخطك أيها الإله الصالح . أسألك يارب وأتضرع ألا تطرحني من وجهك ولا تبعد عني لئلا أهلك لأن لولا يدك سترتني كنت هلكت وصرت كغبار قدام الريح وكمن لم يظهر ألبنة في هذا العالم لأنني منذ تركت طريقك لم يلقيني يوم صالح لأن اليوم الذاهب في الخطايا المظنون صالحاً أمر من سائر الأشياء المرة ، فمنذ الآن أترجى نعمتك أن تعينني وتؤيدني إذا اهتيمت بخلاصي ، فالآن أسجد طالباً عضدني أنا الضال عن طريق العدل ، أسكب عليّ كثرة رافاتك كما سكبتها علي

الابن الشاطر فإنني قد أخذت سيرتي ، بددت ثروة نعمتك ، ارحمني ولا تحقد علي سيرتي الطالحة
كما لم تحقد علي الزانية ولا علي العشار ، ترأف علي كاللص لأنه كان آيس من الكل فعضدته
وجعلته ساكناً في فردوس النعيم .

أقبل توبتي أنا العبد البطل فإنني آيست من الكل لأنك أنت يارب ما جئت لتدعو صديقين بل
خطاة إلي التوبة لأنه آيس مني الكل ، صلي أيها الحبيب وأعترف وليساعد الصلاة والاعتراف العمل
لكي ما تقوم صلاتك كبخور قدام الله وتسمع أيها الإنسان عظيم أمانتك ليكن لك كما تريد والإله نفسه
مرشد الضالين ومقوم الساقطين يمنحنا أن نكمل سيرة غير مذمومة وقيمنا القاضي العادل في ذلك
اليوم عن يمينه . آمين.